

محاضرة

زينة الإيمان

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ..

أيُّها الإخوة الكرام أحمد الله الكريم إليكم أن يسر هذا الجمع، وأن من علينا جميعًا بهذا اللقاء في هذه الليلة الطيبة من ليالي رمضان، وفي هذه الواحة -واحة الإيمان-، جعل الله ﷻ لهذه الواحة من اسمها أوفر نصيب، وبارك في هذه الجهود التي تُقدَّم في هذه الواحة والتي تنظّمها القصباء، شكر الله جهود القائمين على هذه الترتيبات وثقل بها موازينهم أجمعين، ونفع بها إنّه -تبارك وتعالى- سميع الدُّعاء، وهو أهل الرِّجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم -أيُّها الإخوة الكرام- حديثنا هذه الليلة في هذه الواحة -واحة الإيمان- عن زينة الإيمان، تلکم الزِّينة العظيمة التي لا توازيها زينةٌ ولا تدانيها، وهذه الزينة هي منّة الله ﷻ على من شاء من عباده، فليس كلُّ النَّاسِ يوفّقون لهذه الزِّينة العظيمة، وينالون هذه الحلية المباركة، وإنّما ينالها من يكرّمهم الله ﷻ ويمنّ عليهم بهذا المنّ العظيم وهو المانّ وحده وبيده الفضلُ يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وتأمّلوا -أيُّها الإخوة الكرام- في هذا المقام العظيم قول ربِّنا ﷻ في سورة الحجرات: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، قال جلّ شأنه: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذه منّة لا ينالها كلُّ أحد، وإنّما ينالها من عباد الله من يفوز بهذا الإكرام ويحظى بهذا المنّ (حبّ، زين) هذا من الله ﷻ وفضله -عزّ شأنه- يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولمّا ذكر الإيمان لم يعطف عليه أعمال الإيمان ورغائب الدِّين والأخلاق التي يُدعى إليها المسلم؛

لأنها كلها داخلة في الإيمان ويشملها مسمّاه، فمعنى قوله جلّ شأنه: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يتناول الإيمان الذي هو في القلب عقيدة وإيماناً وإقراراً.

ويتناول كذلك أقوال اللسان وما يكون باللسان من ذكرٍ وشكرٍ وثناءٍ وحمدٍ وتكبيرٍ وتهليلٍ وغير ذلك من أقوال الإيمان.

وكذلك تتناول هذه الزينة زينة الإيمان بالجوارح أو تزيين الجوارح بالإيمان بأن تكون الجوارح عاملة بأعمال الإيمان، مواضبة على طاعات الدين، فهذه حلية المؤمن حقاً وزينته وجماله.

ومن عَرِيَ من هذه الزينة فلا زينة له، ولو كان يلبس أجمل حُلّة، ويكتسي أطيب الثياب، ويركب أحسن المراكب، من عَرِيَ من زينة الإيمان عَرِيَ من حقيقة الزينة؛ لأنّ زينة الإيمان ولباسه باقٍ مع العبد في ديناه وأخراه ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيثًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٣٦]، ولباس التقوى هو لباس الإيمان، وهو زينة الإيمان، وهو التحلّي بالإيمان، قال: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فمن كان متحلّياً بهذه الحلية - حلية الإيمان - فإنّها حلية باقية وزينة مستمرة مع صاحبها في ديناه وأخراه؛ لكن أصحاب الزينة - التي هي زينة الحُلل والثياب واللباس والريش - فهذه ليس منها شيء يدخل معهم في قبورهم إطلاقاً إلا لفافة يُلف بها وسيدرج بها في قبره ثم سريعاً ما تبلى وتأكّلها الأرض؛ ولكن زينة الإيمان زينة باقية ومستمرة؛ لهذا لا مقارنة بين الزينتين، ولا بين هاتين الحليتين العظيمتين، ومن منّ الله ﷻ عليه بالأمرين معاً فهذا خيرٌ على خير، أمّا إذا ضاعت حلية الإيمان وزينته فهذا عين الضياع وتماؤم الخسران وحقيقة الحرمان.

قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لما ذكر الإيمان لم يعطف عليه شيئاً؛ ولكنه - جلّ شأنه - لما ذكر الكفر قال: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾، وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في: مقابل الإيمان، مقابل زينة الإيمان، مقابل حلية الإيمان، هذه الأمور الثلاثة:

منها ما ينقض الإيمان من أصله.

ومنها ما ينافي كمال الإيمان الواجب.

ومنها ما ينافي كماله المستحب.

ذلك أن أمور الإيمان الدّاخلة في مسمّاه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم هو من أصل الإيمان وأساس في الدين.

وقسم هو من كمال الإيمان الواجب.

وقسم هو من كمال الإيمان المستحب.

وكلها يتناولها الإيمان بشموله العام ويتنظمها في مسماه ومدلوله.

ولهذا لما ذكر ما يضاد الإيمان، ذكر ما يُنقص الإيمان وما ينقص الإيمان؛ لأن الإيمان له نواقض

وله نواقض:

له نواقض تهدمه من أساسه.

وله نواقض وهي على قسمين:

قسم نقص في كمال الإيمان الواجب.

وقسم نقص في كمال الإيمان المستحب.

وتأمل هذا التفصيل في قوله: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾؛ لأن من الأمور التي تتنافى مع

الإيمان سواءً في أصله أو في كماله الواجب أو في كماله المستحب:

منها ما هو كفرٌ، وبدأ به لخطورته قال: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾.

ومنها ما هو فسوق وليس بكفرٍ، وهو ما ينافي كمال الإيمان الواجب.

ومنها ما هو عصيانٌ وليس فسقاً ولا كفراً.

ومنة الله ﷻ على المؤمن الصادق أنه كرهه إلى قلبه هذه الأمور الثلاثة كلها - وانبه لهذا رعاك الله -

من منة الله ﷻ على المؤمن الصادق أنه - جل شأنه - كرهه إليه هذه الأمور الثلاثة كلها: كرهه إليه ما

يُنقص الإيمان، وما يُنقص كماله الواجب، وما يُنقص كماله المستحب؛ قال: ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

وَالْعِصْيَانَ﴾.

ومن كانوا بهذا الوصف - أي زين الإيمان في قلوبهم وحُبب إليهم وكُرّه إليهم الكفر والفسوق

والعصيان -، من كانوا بهذا الوصف ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) والرشاد ضد الغي كما أن الضلال ضد

الهداية.

والرّاشد من عباد الله هو الذي وفقه الله ﷻ للعلم النَّافع فهماً له وعملاً به، فإذا كان على عناية بالعلم

النَّافع وعمل به فهو راشد، وإذا كان بدون علم وعمل فهو ضال لعدم علمه، وإذا كان يعلم ولا يعمل

فهو غاوي،^(١) وهنا وصفهم الله ﷻ بالرشاد قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾ أي الذين ازدانوا بالإيمان علمًا به وعملاً.

ثم توج ذلك ﷻ بقوله: ﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات] أي: أن هذا التوفيق للتزيين بزينة الإيمان والتحلّي بحليته المباركة في هذه الحياة الدنيا هذا فضل الله ﷻ، ومنه -جل شأنه- على من شاء من عباده ﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ وفي القرآن آيات عديدة تقرّر هذا المعنى وتؤكد على أن حصول العبد على الإيمان منة الله عليه ومحض فضله وتيسيره ﷻ، كقوله سبحانه في السّورة نفسها: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَن آسَلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَن هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات]، ويقول جل شأنه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] فهي منة الله وفضله ﷻ على من شاء من عباده والله ذو الفضل العظيم.

ها هنا عندما يدرك العبد هذه الحقيقة العظيمة ويستشعر هذا المدلول يستشعر في الوقت نفسه افتقاره الشديد إلى ربه ﷻ في أن يمنّ عليه بالهداية وأن يمنّ عليه بالثبات، وأن يسلم قلبه من زيغ القلوب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران] ولهذا جاء في الحديث الصحيح^(٢) حديث أم سلمة وغيرها أن النبي ﷺ كان أكثر دعائه: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قالت: فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا لَأَكْثَرَ دُعَاكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ: إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»، ولهذا كان كثيرا ما يدعو ﷻ بهذا الدعاء المبارك.

والله تعالى يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والشاهد أن العبد إذا استشعر ذلك أحسّ بعظيم افتقاره إلى الله وشديد احتياجه إليه ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وتأمل تأكيد هذا المعنى وتقريره في قول ربنا -جل شأنه- في الحديث القدسي المخرّج في «صحيح

(١) فالرشاد إصابة الحق على بصيرة وهدى، وهو ضد الغي الذي يتضمن المخالفة للحق بعلم وإدراك ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

(٢) أخرجه الترمذي (ح ٣٥٢٢). وصححه الألباني.

مسلم^(١): «يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ...، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ» وتأمل ذكر ربنا - جل شأنه - في هذا الحديث القدسي في الزيتتين، وأن كل منهما منة الله «كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ...، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ».

فمن وفق لزيينة الإيمان فهذه منة الله عليه، ومن وفق لزيينة اللباس فهذه أيضاً نعمة الله ﷺ عليه، فإن الله ﷻ هو الذي أطعم وأكسى، وأغنى وأفقر، وأعطى ومنع، وخفض ورفع، والأمر له - جل شأنه - ﴿مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا استشعر العبد هذا المعنى قوي في تحقيق الافتقار، والافتقار عبودية عظيمة جداً ومنزلة مباركة من منازل السائرين إلى الله ﷻ، والصَّحْب الكرام يوم الأحزاب وكانوا يحفرون الخندق يقولون:

وَاللّٰهُ لَوْ لَا اللّٰهُ مَا اهْتَدَيْنَا
فَأَنْزَلْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قِيُنَا^(٢)
أي أن هذا كله فضله ومنه ﷻ.

وإذا أدرك العبد هذه الحقيقة احتاج في هذا المقام إلى أمرين عظيمين وأصلين جامعين هما أساس الخير:

الأول: الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه وإظهار الافتقار إليه، ودعاؤه وسؤاله وطلبه والإلحاح عليه، دعاء فقير ذليل منكسر بين يدي ربّه ﷻ يرجو رحمته ويخاف عذابه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء].

والأمر الثاني أن يجاهد نفسه على تحقيق الإيمان وتقوية الصلة بالرحمن والمواظبة على طاعة الله ﷻ ولا سيما فرائض الدين وواجباته؛ لأن الله ﷻ يقول في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي

(١) (ح ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَأُعْطِيَتْهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَتْهُ»^(١).

وهذان الأصلان جمعا في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٢] ، وفي قوله ﷺ: «أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعَيْنَ بِاللَّهِ»^(٢) فإذا وَفَّق العبد لهذين الأصلين حاز الخير ونال السعادة وتحقق له الفلاح بإذن الله ﷻ؛ أن يكون دائما ملحا وطالبا من الله، وفي الوقت نفسه أن يكون مجاهداً نفسه على فعل الأسباب النافعة المقرّبة إلى الله ﷻ والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الروم: ٦١].

وقد جاء في السنن الكبرى للنسائي وغيره من حديث عمّار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ فِي صَلَاتِهِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيَيْتَنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّقَنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي» إلى أن قال: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ صَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»^(٣) وهذا دعاء كان يقوله نبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في صَلَاتِهِ، ويأتي به قبل السَّلام وهو من المواضع العظيمة في الصَّلَاة التي يُتَحَرَّى فيها الدُّعاء، فكان يسأل الله ﷻ هذا السؤال: «اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»، فما أجمل أن تتكرّر هذه الدَّعوة المباركة على لسان العبد مستشعرا معناها، مستشعرا افتقاره إلى هذه الزينة العظيمة التي هي مَنَّةُ الله ﷻ على من شاء من عباده.

وثبت في «صحيح مسلم»^(٤) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا» قال: «وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» أي بالإيمان والأعمال «أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا» وتأمل ختم هذا الدعاء بالتَّوَسُّلِ إلى الله بهذين الاسمين (الولي) و(المولى) وهما اسمان لله -جَلَّ وَعَلَا- من أسمائه الحسنَى، وفي التَّوَسُّلِ بهذين الاسمين العظيمين استشعار لولاية الله الخاصّة وتولّيه لعبده المؤمن بالتوفيق للإيمان والتَّسْبِيحِ على الدِّين والحفظ من الفتن والإعاذة من زيغ القلوب، هذا كلّ بيد الله ﷻ بيد الوليّ المولى سبحانه

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) (ح ١٢٢٩)

(٤) (ح ٢٧٢٢).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَطُغُوهُمۡ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [البقرة] فهذه دعوة عظيمة صحّت وثبتت عن نبينا -عليه الصلاة والسلام- «وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» ، والله يقول: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيكُم مِّنْ شَأْنِهِ﴾ [النساء: ٤٩] فالتزكية بالإيمان هذه فضل الله ومنته ﷻ.

والإيمان هذه الزينة المباركة والحلية العظيمة تتناول كما أسلفت تزين القلب بعقائد الدين وأعمال القلوب، فمن زينة الإيمان؛ بل من الأصول التي لا تقوم زينة الإيمان إلّا عليها أركان الإيمان الستة أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، فهذا أساس زينة الإيمان الذي عليه تقوم، فإذا انتفى واحد من هذه الأصول بطلت الأعمال كلّها وانهدمت الزينة من أساسها، كما قال ﷺ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٥﴾ [المائدة]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٣٦﴾ [النساء] فهذه الأصول أسس لزينة الإيمان لا قيام لزينة الإيمان إلّا عليها.

ثم يأتي بعد ذلك أعمال الدين ولاسيما فرائض الدين وواجباته، فالصلاة زينة، والصيام -ونحن في شهره- زينة، والحجّ زينة، والزكاة زينة، وكلّ طاعة يتقرّب بها المسلم إلى ربّه ﷻ فهي زينة للمؤمن وحلية له، وجمال وبهجة لقلبه، وقرّة لعينه، وزكاة لحاله وحياته.

وكذلك أقوال الدين التي باللسان كلّها داخلّة، وهي زينة للعبد وجمال له، ونور وضياء. كذلك ما يكون في القلب من الأعمال الفاضلة كالحياء، فالحياء زينة، والخشية والإنابة والتوكل والرجاء والخوف إلى غير ذلك، فهذه كلّها من زينة الإيمان وجماله.

أخلاق الدين وآدابه عنوان على جمال العبد، ودليل على حلاوة سلوكه وزين مسلكه وجماله. بينما من كان منزوع الأخلاق عاريًا من الآداب فهو بعيد من الجمال، أرايت لو قابلت شخصا لقيك بأجمل حلّة، وأطيب لباس، وأحسن رائحة عطر، ثم عاملك بخلق فضّ، وأسلوب غليظ، وعبارات قاسية، لا ترى فيه جمالا، لا ترى عينيك فيه جمالا إطلاقا؛ لأنّ الإنسان إذا انتزعت منه أخلاق الدين وجماله وآدابه أصبح عريّا من الزينة، وإن تجمّل بأنواع من اللباس.

فهذا معنى عظيم، كم هو جميل لعبد الله المؤمن أن يستشعره في هذه الحياة، وأن يجاهد نفسه على التحلّي بهذه الحلية المباركة والزينة العظيمة، زينة الإيمان التي تجمع كما أسلفت الدين كله.

وأختم بتلخيص هذه الزينة وجماع أمرها وشمولها بجميع معانيها في خمسة أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، قد جمعت هذه الأحاديث الخمسة جميع ما تحتويه زينة الإيمان وحليته، وقل أن يخلو منها كتاب لأحد من أئمة السلف ألف في بيان الإيمان سواء منها المتقدم أو المتأخر.

أول هذه الأحاديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما في «الصحيحين»^(١) في ذكر وفد عبد القيس، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أمركم بالإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة..» إلى آخر الحديث

والحديث الثاني حديث جبريل المشهور، وفيه أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».^(٢)

فدل هذان الحديثان على أن الإيمان يشمل ويتناول في مدلوله ومسماه عقائد الدين التي قيامها في قلب المؤمن ومنها تنبع أعمال الدين وطاعاته الزاكية وأخلاقه الفاضلة، ويتناول أيضًا في الوقت نفسه أعمال الدين ولا سيما فرائض الإسلام وواجبات الدين العظيمة، فهي داخله في زينة الإيمان وجماله، كما يشهد لذلك حديث وفد عبد القيس.

والحديث الثالث حديث أبي هريرة في «الصحيحين»^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الإيمان بضغ وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». هذا حديث مبارك في شرح زينة الإيمان وحليته، والكلام في معنى الحديث ودلالاته يطول.

والحديث الرابع، حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»^(٤) وفي هذا دلالة بيّنة أن هذه الحقائق والأمور السافلات والأفعال الشنيعة تؤثر في الإيمان تأثيرًا عظيمًا، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام نفى الإيمان عن مرتكبي هذه الأمور، والمراد بنفي الإيمان عنه نفي كمال الإيمان الواجب عنه لا نفي أصله وأساسه، كما هو معلوم ومتقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة.

ويستفاد في هذا الحديث فائدة عظيمة ألا وهي أن الإيمان كما أنه يشمل الأعمال الزاكية والطاعات

(١) أخرجه البخاري (ح ٧٥٥٦)، ومسلم (١٧).

(٢) أخرجه مسلم رحمه الله (٨).

(٣) أخرجه البخاري رحمه الله (٩)، ومسلم رحمه الله (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (ح ٢٤٧٥)، ومسلم (ح ٥٧).

الفاضلة، فإنه كذلك يشمل البعد عن المحرّمات واجتناب الآثام، وإذا وقع في شيء من هذه الخسائس والحقارات فإنّ هذا تسبّب منه لنفسه بالبعد عن زينة الإيمان وجماله، وكم لهذه الأعمال من ضرر يبيّن حتى في صورة الإنسان الظاهرة، وهذا تحدّث عنه أهل العلم كثيراً، كيف أنّ المعصية تؤثر على الإنسان في جمال وجهه وجمال هيئته، فإنّ أهل المعاصي كما قال الحسن البصري: (إنّهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه)^(١) فهذه الحقارات تؤثر على الإنسان في حليته وجماله.

والحديث الخامس من هذه الأحاديث حديث سفيان بن عبد الله الثقفي الذي قال فيه: قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمَّ»^(٢). وهذا فيه التأكيد على أنّ العبد إذا وُفّق للإيمان فليحرص على الاستقامة عليه؛ لأنّ من الإيمان إيمان لا يثبت، روى أبو الدرداء في دعاء كان يدعو به، رواه عنه ابن أبي شيبة في كتابه «الإيمان»^(٣) عن معاوية بن قرة عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول في دعائه: (اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا دَائِمًا وَعِلْمًا نَافِعًا وَهَدًيًا قَيِّمًا)، هذا دعاء عظيم جدًّا قال معاوية في تعليقه على هذا الحديث وبيان معناه: فنرى أنّ من الإيمان ما ليس بدائم، ومن العلم علما لا ينفع، ومن الهدى هديا ليس بقيم. فسأل أبو الدرداء ربه أن من عليه بالإيمان الدائم والعلم النافع والهدى القيم، وهذه الثلاث إذا اجتمعت للعبد المؤمن اجتمع له الخير.

وبهذه الدّعوة المباركة أختتم هذا الحديث: اللّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ إِيْمَانًا دَائِمًا وَعِلْمًا نَافِعًا وَهَدًيًا قَيِّمًا. اللّهُمَّ أَصْلَحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشِنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَوَفَّقْنَا اللّهُمَّ لِمَا تَحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ مِنْ سَدِيدِ الْأَقْوَالِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ، يَا سَمِيعَ الدُّعَاءِ، يَا مُجِيبَ النِّدَاءِ. كما أنّني أيضًا أختتم حديثي هذا بدعوة خاصّة لحاكم الشارقة الشيخ سلطان القاسمي -حفظه الله ووفقه لكل خير- وله جهوده المباركة ولا سيما في هذه الواحة -واحة الإيمان-، وقد افتقد في هذه

(١) الداء والدواء لابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص ٤١٩)، طبعة المجمع.

(٢) أخرجه مسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ح ٣٨).

(٣) (ص ٤١)، بتحقيق الألباني، وصحح إسناده.

الأيام والدته الكريمة.

والوالدة بمناسبة الحديث عن زينة الإيمان هي زينة البيوت، ولا يعرف هذه الحقيقة ويدركها إلا من فقد والدته؛ فإنه يدرك فقدَه لزينة في بيته وحلية في بيته وعطر في بيته لا يعوّضه شيء ويسدّه شيء، فالأم جمال للبيت وزينة، ولا سيما إذا أكرم الإنسان بسكنى والدته معه أو سكناه معها، يصبّحها ويمسّيها، ويلتقيها كلّ يوم، ويسمع دعواتها، ويرى ابتهاجها بلقائه وسرورها برؤيته، وليس عند الوالدة أطيب من أن ترى ابنها وتكتحل برؤيته.

فنسأل الله ﷻ أن يغفر لوالدته وأن يسكنها جنّات النعيم، وأن يغفر لموتانا وموتى المسلمين، وأن يوفّقنا جميعاً لكل خيرٍ إنّه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمّد وآله وصحبه أجمعين.